أدب الأطفال والتراث الأندلسي

الأستاذ المساعد الدكتور
هاشمية حميد جعفر
رئيس قسم رياض الأطفال

أدب الأطفال والتراث الأندلسي

الأستاذ المساعد الدكتور
هاشمية حميد جعفر
رئيس قسم رياض الأطفال

المقدمة:

قد وقع اختيارنا على موضوع (أدب الأطفال والتراث الأندلسي قديماً وحديثاً) لان الطفولة كلمة توحي بالإنسانية.. وما ان نطقت هذه الكلمة إلاّ وحركت في نفوسنا كل مشاعر الرقة والعطف والحنان.. والطفولة هي ماضينا وحاضرنا ومستقبلنا.. وبها تبنى الأمم. ومن هنا جاء اهتمامنا بهذه المرحلة وبأدبها.

وسوف نسلط الأضواء على مسايرة التراث الأندلسي لأدبيات الطفولة من خلال هذه الدراسة التي ستوزع على النحو الآتي: مقدمة تعقبها ثلاثة مباحث، سندرس في المبحث الأول: أدب الأطفال والتراث الشعري الأندلسي، وفي الثاني: أدب الأطفال والتراث النثري الأندلسي، ويأتي الثالث ليتحدث عن استلهام التراث الأندلسي في أدب الأطفال المعاصر ثم الخاتمة ونتائج البحث وقائمة بهوامش البحث ومصادره.

وختاماً نرجو من الله العلي القدير أن يمن علينا بالرضا والقبول خدمة لأطفالنا الاعزاء.

المبحث الأول

أدب الأطفال والتراث الشعري الأندلسي

يلعب أدب الأطفال دوراً كبيراً في تقوية ملكة الطفل الابداعية والتخيلية،

كما انه يساهم في تكوين شخصيته، وتعزيز الثقة بنفسه وبمحيطه الاجتماعي، ويحفظ له مكانته، ويلبي رغباته وعلى هذا فواجبه اعني - أدب الأطفال - كيفما كان مكتوباً، مسموعاً ومرئياً ان يعتمد على التراث الثقافي الإسلامي من جهة وعلى العادات والتقاليد والخصوصيات للبيئة التي ينتج فيها من جهة أخرى.

إن ما وصل إلينا من نصوص سواء أكانت شعرية أم نثرية تخص الأطفال تأليفاً وإبداعاً كان قليلاً إذا ما قورن بأدب الكبار على الرغم من انه قديم قدمه لا بل هو أقدم منه.

وأن هذا الأدب القليل كان له كتاب وشعراء حفظوه لنا مسجلين إياه في مدوناتهم ومؤكدين على أهميته في حياة الطفل، فلم تخل أدبياتنا التراثية من الاهتمام بالطفولة، لا بل كان لأدب الأطفال مكاناً واضحاً بين أدب الكبار، فقد استحل مساحة لا بأس بها من كتبهم ودواوينهم الشعرية. فقد وجدنا أدباً للأطفال في الشعر الأندلسي وبضروب منوعة منها ما يلي:

١ـ رثاء الأبناء:

كان الشاعر ابن عبد ربه (ت ٣٢٨هـ) أديباً واسعاً أحاط بفنون العلم والأدب، وكان شاعراً مكثراً صحيح الأسلوب متين السبك سهل التراكيب، وله شعر كثير منه ما سماه المحصات وهي قصائد في المواعظ والزهد وقال قصيده يرثي فيها ابنه[1]:

وأكبدا قد تقطعت كبدي ... وحرقتها لواعج الكمد

ما مات حي لميتٍ اسفاً ... اعذر من والدٍ على ولدِ

يا رحمة الله جاوري حدثاً ... دفنت فيه حشاشتي بيدي

ونـــوري ظلمـــة القبـــور عـــلى مـــن لم يصـــل ظلمـــه الى أحـــد
يـــا قمـــراً اجحـــف الخســـوف بـــه قبل بلوغ السواء في العالنجف الأشرف
أي حشـــاً لم تـــذب لـــه اســـفاً واي عـــين عليـــه لم تجـــد
لا صـــبر لي بعـــد ولا جلـــد فجعـــت بالصـــبر فيـــه والجلـــد
يـــا لوعـــة مـــا يـــزال لا عجـــها يقـــدح نـــار الأســـى علـــى كبـــدي

بهذه الكلمات الصادقة واللوعة الواضحة ومشاعر الأسى في القلب واقعة عبر ابن عبد ربه عن وفاة فلذة كبده الحرى معترفاً بأنه مهما تأسى عليه فلن يموت فما مات حي على ميتٍ أبدا وقد أعطى لنفسه عذراً لكثرة حزنه عليه بأنه والد والوالد معذور. ثم يطلب الرحمة من الله لتنور قبره. واصفاً إياه بالقمر الذي سارع الخسوف اليه قبل ان يكتمل عدده ثم يقول بأنه فقد الصبر والتجلد لأنه رزء بهما. وستبقى نار الأسى في كبده تتقد.

ومن قصائده في رثاء ابنه الطفل الصغير ذكرها في كتابه (العقد الفريد: ٢٥٨/٣):

على مثلها من فجعة خانني الصبر... فراق حبيب دون أوبته الحشر ولي كبد مشطورة في يد الأسى... فتحت الثرى شطر وفوق الثرى شطر يقولون لي صبر فؤادك بعده... فقلت لهم: ما لي فؤاد ولا صبر فريخ من الحمر الحواصل ما اكتسى... من الريش حتى ضمه الموت والقبر إذا قلت أسلو عنه هاجت بلابل... يجددها فكر يجدده ذكر

وفي هذه الأبيات كانت لوعته أشد لأن طفله مازال صغيرا فشبهه بالفريخ الذي لم يكتس جلده الاحمر ريشا بعد،فكانت كبده وكأنها مشطورة الى نصفين، النصف الأول دفن معه، والثاني بقي فوق ترابه، ومهما حاول أن

يصبر نفسه لا يستطيع لأنه أصبح لا يمتلك فؤادا ولا صبرا.

أما الشاعر أبو بكر بن قسوم بن أصبغ الأندلسي اللخمي الاشبيلي (ت٦٣٩هـ) فقد كان أديباً وشاعراً بارعاً سهل اللغة واضح المعاني، وأكثر معانيه مأخوذة من الامثال ومن الاشعار. قال يرثي ابنه[٢]:

يمر الحبيب بقبر الحبيب ... فلاذا ينادي ولاذا يجيب

وكيف يجيب رهين الثرى ... رماه الحمام بسهم مصيب

تنوسي لما نأى عهده ... واقفر منه اللوى والكثيب

إذا أودع الميت في لحده ... فليس له ويحسه من حبيب

ثم تذكر ابنه فعاد يقول[٣]:

شطت بمن تهواه عنك الدار ... وقضت عليك بحكمها الاقدار

برد لهيب الشوق منك بعبرةٍ ... تنقع ضلوعك انها لحرار

رحل الحبيب عن الحبيب فدمعه ... عند التذكر واكف مدرار

في الجفن منه عبرة سيالة ... تسقي الخدود وفي حشاه النار

يا حرقة يا فجعة يا لوعة ... سكنت فؤادي مالها مقدار

لله منك هلال عشرٍ قورنت ... بثلاثةٍ لو يكمل الأدبار

انست بزورتك القبور واصبحت ... منك الديار كانهن قفار

لقد اردتك ان تعيش لكبرتي ... وزمانتي فارادك الجبار

ولقد تراكضنا الحياة لغاية ... فسبقت انت وخانني المضمار

ما ان وجدت على مصابك ناصراً ... الا الدموع فانها انصار

جميل قوله وتصويره لولده الحبيب وهو رهين الثرى أعياه الجواب بعدما أصابه سهم الردى وخلا منه الكثيب. ثم يصف في الثانية حكم الاقدار على ولده فابعدته عن الدار. وفي البيت الثاني يرسم لنا صورة رائعة حينما يجعل العبرة تبرد لهيب شوقه الى ولده وتنقع ضلوعه الحرى. ثم يشبه الشاعر كثرة الدموع بالواكف المدرار. واخذ يتفنن بريشته حينما شخص وجسم العبرة السيالة وهي تسقي الخدود فكأنها ورود لان الخدود تحمر عند البكاء، ويسترسل الشاعر بوصفه لحرقته وحزنه على ولده وحسرته على فراقه فقد كان في حساباته ان يمتد بابنه العمر كي يساعده في كبرته ولكن إرادة الله الجبار حالت دون ذلك.

ويأتي الشاعر إسماعيل بن بدر بن إسماعيل بن زياد القرطبي ت٣٥١هـ، والذي كان مكثراً مجيداً للشعر وله مدح ووصف ورثاء وفي شعره متانة ورقة. ليرثي ابنه احمد[٤]:

غرست قضيباً زعزعته يد الردى فخلوا دموع العين تبك على غرسي

وهذا حمام الايك يبكي هديله فما لهديلي لا تذوب له نفسي

وقال أيضاً[٥]:

ما حزن يعقوب على يوسف أشد من حزني على أحمد

أحمد ملحود وهل نستوي وذاك لم يقبر ولم يلحد

وكان يرجوه وله أرتجي وهذا وقد غمضته باليد

في البيتين الأوليين يشبه الشاعر ابنه وكأنه قضيب غرسه ولكن رياح الردى زعزعته من مكانه فيطلب من الآخرين السماح لدموع عينيه البكاء على ما غرسه متمنياً أن تذوب نفسه لهديله ولكن دون جدوى.

واستلهم الشاعر من قصة يوسف عليه السلام وشدة حزن أبيه يعقوب عليه السلام على فراقه، معاني أكدت أن حزنه كان أشد وأعظم على ولده.

ومن الشعراء الوافدين الى الأندلس أبو الحسن علي بن عبد الغني الفهري القيرواني الضرير الحصري (ت٤٨٨هـ) الذي كان أديبا مترسلاً وشاعراً، وكان شعره سهلاً بسبب سرعة النظم ذا معانٍ قريبة حسان، وشعره كله قصيد ثم له تخميس ومعشرات (مقاطع تتألف كل واحدة منها عشرة أبيات). وقال يرثني ولده عبد الغني[٦]:

يـــا نـــور عـــيني فقدتـــه ... ويـــا الفـــؤاد وجدتـــه

يـــا كوكبـــاً لقبـــوني ... بالبـــدر يـــوم ولدتـــه

لم يهـــد ركـــبي سنـــاه ... حـــتى خبـــا فلحدتـــه

أنـــت النجيـــب ولكـــن ... أبى الـــردى مـــا أردتـــه

حلـــت يـــد الـــدهر عقـــداً ... قـــد كنـــت قبـــل شددتـــه

ســـهرت بعـــدك ليلـــي ... وطالمـــا قـــد رقدتـــه

وكـــم نضـــحت بـــدمعي ... حـــر الحشـــا لـــو بردتـــه

عـــل الـــبني ينـــادي ... غـــداً إذا مـــا قصدتـــه

يـــا رب وف المـــرزا ... بولـــده مـــا وعدتـــه

فيغفـــر الله ذنبـــاً ... أبدأتـــه وأعدتـــه

لا ضـــيع الله أجـــري ... فـــأي جـــدٍ وجدتـــه

أيـــوم مصـــرعه أم ... يـــوم الحســـاب شـــهدته

كـــان ابـــن تســـع ولكـــن ... في الأكثـــرين عددتـــه

هـــــو الحســـــام فـــــويلي ... أيفّ الضـــــــريح غندتـــــــه

لا حبـــــــذا العـــــــيش أني ... علـــــى الممـــــات حسدتـــــه

عبـــــد الغـــــني مفيـــــدي ... مـــــن الغـــــنى مـــــا أفدتـــــه

يـــا ابـــني الـــذي كـــان يـــبني ... مجـــــداً وان كنـــــت شـــــدته

مـــا غـــاض بعـــدك ثكلـــي ... إلاّ بكيـــــــت فزدتـــــــه

استرسل الشاعر بعباراته البسيطة وألفاظه السهلة بسرد ما حل به بعد فراق ولده، فهو نور عينيه المفقود ولكنه في فؤاده موجود، ومن عادة الناس أن يكنى الرجل باسم أول مولود له. وهذه الإشارة واضحة في البيت الثاني، ثم يصف الردى واصراره على اخذ ولده منه ويعرج على سهر الليالي وهكذا يستمر الشاعر إلى ان يرجو من ولده ان يدعو له يوم الحشر من الله سبحانه ان يغفر ذنبه لأنه قد رزء بمصاب ولده. ثم يصف ما حل به من جراء فراقه لولده كيوم الحساب وحدد لنا عمر ولده بتسع سنوات فمازال في مقتبل العمر فلا حبذا العيش من دونه فكان يتمنى الموت لا بل يحسد ولده على الممات لان الحياة أصبحت لاشيء في نظره.

ومن الشعراء الوافدين الى الأندلس لأخذ العلم عن اساتذتها وشيوخها محب الدين بن رشيد السبتي ت سنة ٧٢١هـ. وكان أديباً وخطيباً ومدرساً ومقرءاً وشاعراً، قال يرثي ابناً له[٧]:

شـباب ثـوى شـابت عليـه المفـارق ... وغصـن ذوى تاقـت إليـه الحدائـق

علـى حـين راق النـاظرين بسـوقه ... رمتـــه ســـهام للعيـــون رواشـــق

فمـا أخطـأت منـه الفـؤاد بعمـدها ... فـلا أبصـرت تلـك العيـون الروايـق

وحـــين تـــدانى للكمـــال هلالـــه ... الم بـــه نقـــص وجـــدت مواحـــق

إلى الله أشكو فهو يشكى نوازعاً ... عظاماً سطاها للعظام عوارق

ولا مثل فقدان البنى فجعته ... وإن طال ما لحت ولجت بوائق

محمد إن الصبر فيك مصارم ... محمد إن الوجد فيك مصادق

محمد إن الصبر فيك مخالف ... محمد إن الوجد فيك موافق

محمد اإن الصبر صبر وعلقم ... على أنه حلو المثابة سابق

والقصيدة طويلة لا يتسع المكان لذكرها كاملة لذا سنتجزء منها بعض الأبيات فمنها قوله[٨]:

وإن أدع شخصاً باسمه لضرورة ... فإن اسمك المحبوب للنطق سابق

وان تقرع الأبواب راحة قارعٍ ... يطر عندها قلب لذكرك خافق

عليك سلام الله ماحن عاشق ... وما طلعت شمس وما ذر شارق

وما همعت سحب عراء لوائح ... وما لمعت تحدو الرعود البوارق

وجاد على مثواك غيث مروض ... عهاد لرضوان الإله موافق

لقد استخدم الشاعر تكرار اللفظة والعبارة كاملة ليبين مدى عظم المصيبة التي حلت به بعد وفاة ولده (محمد) - ومن الصورة الحقيقية التي رسمها لنا انه حينما تطرق الباب يتبادر الى ذهنه أنه ولده هو الذي طرقها فيخفق قلبه لذلك.

٢ـ رثاء البنات:

ومن الشعراء من رثى ابنته، فللشاعر ابن حمديس الصقلي (ت ٥٢٧هـ) شعر كثير جيد في المديح،والغزل، والنسيب،والشكوى، والرثاء،لاسيما رثاء ابنته التي توفيت اثر قصيدة نعي بها نفسه،وأرسلها اليها وهو على قيد الحياة،

فما أن وصلها هذا النعي الكاذب حتى لبست الحداد، وبكت أباها وظلت محزونة على أبيها حتى ماتت، فعلم أبوها بخبر وفاتها فزاد حزنه وتضاعفت آلامه. فيقول ابن حمديس في مطلع قصيدته[٩]:

ننام من الايام في غرض النبل ونغذى بمر المصاب منها فنستحلي

وقد فرغت للقوم في غفلاتهم حتوف بهم تمسي وتصبح في شغل

ويبقى على ما كان من قبل خلقه اله هدى أهل الضلالة بالرسل

وبعد هذا المطلع الهادىء يظهر ابن حمديس جانب الامومة في صورة ابنته المرثية، وذلك حينما يصور مشهد افتقاد ابنائها لها فيقول:

وخلفت في حجر الكآبة للبكا بناتٍ لأم في مفارقة الشمل

يرين كأفراخ الحمامة صادها أبو ملحم في وكره كأبي الشبل

ومما يلفت النظر في هذه القصيدة ابراز الجمال الخلقي في شعر رثاء البنت من خلال الايحاء إليه بقوله:

وكل مهاة حول قبرك بالفلا لما بين عينيها وعينك من شكل

وفي هذا إشارة بارعة الى ما كانت عليه ابنته من حسنٍ كان قاسماً مشتركاً بينها وبين الغزال، إن هذه القصيدة على ما تميزت به تعبير عن ذات الأب الثكلى ولا تكاد تظهر صورة إلا من خلال علاقتها بحدث النعي الكاذب الذي يعتقد الشاعر أنه تسبب في وفاتها، كما تظهر في صورة الأم الحنون المفقودة مع إشارة صغيرة وعابرة لحسنها وجمالها.

ولابن سارة الشنتريني (ت٥١٧هـ) هذه الأبيات في رثاء ابنته[١٠]:-

الا ياموت كنت بنا رؤوفاً فجددت الحياة لنا بزوره

حمـــاد لفعلـــك المشـــكور لمـــا كفيـــت مؤونـــة وســـترت عـــوره

فانحكنـــا الضـــريح بـــلا صـــداقٍ وجهزنـــا الفتـــاة بغـــير شـــوره

في هذه الأبيات معاني جديدة وتعبير بارع عن الموت فالشاعر يضفي عليه صفات إنسانية فيجعله رؤوفاً، وإنه جاء ليجدد الحياة له من جديد، فهو يشكره ويثني عليه لأنه كفاه بالمؤونة، وستر عورته وأجمل تعبيرا كان في البيت الثالث حينما صور ابن سارة أن ابنته عروس ستزف إلى الضريح أي القبر بلا صداق، وقد تم تجهيزها بغير استشارة من أحد.

٣ـ لحظات التوديع:

وصف ابن دراج القسطلي (ت٤٢١هـ) لحظات وداعه لأولاده وأسرته بهذه الأبيات التي جعلها مقدمة لقصيدة مدحٍ للمنصور بن أبي عامر فيقول[١١]:

دعـــي عزمـــات المستضـــام يشـــير فتنجـــد في عـــرض الفـــلا وتغـــور

الم تعلمـــي ان الثـــواء هـــو التَّـــوى وان بيـــوت العـــاجزين قبـــور

تخـــوفني طـــول الســـفار وأنـــه لتقبيـــل كـــف العـــامري سفـــير

ومنها يقول:

ولمـــا تـــدانت للـــوداع وقـــد هفـــا بصـــبري منـــها أنـــة وزفـــير

تناشـــد في عهـــد المـــودة والهـــوى وفي المهـــد مبغـــوم النـــداء صـــغير

عيـــيٌ بمرجـــوع الخطـــاب ولفظـــه بموقـــع أهـــواء النفـــوس خبيـــر

فما أصعب لحظات التوديع للأهل والاحبة لاسيما إذا كان طفلاً صغيراً يناغي في المهد لا يستطيع رد الجواب ولكنه على معرفة تامة بما يشعر به والده.

٤ـ في الشوق والحنين إلى الأهل والأطفال:

ويطالعنا أبو بكر بن زهر (ت٥٩٥هـ) الذي كان إلى جانب براعته في الطب، شاعراً مكثراً من القصيد والموشح، وشعره جيد في الحكم والزهد، وله هذه الأبيات يتشوق بها إلى بيته وأهله وطفله الصغير[١٢]:-

ولي واحد مثل فرخ القطا ... صغير تخلَّف قلبي لديه

نأت عنه داري فيا وحشتي ... لذاك الشخيص وذاك الوجيه

تشوَّقني وتشوَّقته ... فيبكي علي وابكي عليه

وقد تعب الشوق ما بيننا ... فمنه إلي ومني إليه

على ما يبدو الشعور كان متبادلاً بين الأب وابنه، فكلاهما يتشوق وكلاهما يبكي إلى أن تعب الشوق بينهما، وقد استخدم الشاعر صيغة التصغير في كلمة (الشخيص) ليدلل على صغر سن طفله الذي ابتعد عنه.

٥ـ التهنئة بمولود:

وكان للمرأة الشاعرة اسهامة في أدب الأطفال في التراث الأندلسي، فهذه الشاعرة عائشة بنت احمد بن محمد بن قادم القرطبية التي ماتت عذراء لم تتزوج نحو سنة (٤٠٠هـ)، وكانت أديبة وشاعرة فصيحة وقد ضمنت شعرها صوراً بيانية، دخلت يوماً على المظفر بن المنصور وبين يديه ولده فقالت مرتجلة[١٣]:

أراك الله فيه ما تريد ... ولا برحت معاليه تزيد

فقد دلت مخايله على ما ... تؤمله وطالعه السعيد

تشوقت الجياد له وهز الـ ... حسام هوى وأشرقت البنود

فسوف تراه بدراً في سماءٍ ... من العليا كواكبه الجنود

وكيف يخيب شبل قد نمته ... إلى العليا ضراغمة اسود

فانتم آل عامر خير الـ ... ـزكا الأبناء منكم والجدود

وليدكم لدى رأيٍ كشيخٍ ... وشيخكم لدى حربٍ وليد

لقد أجادت القرطبية بكلماتها السلسلة البسيطة، وهي مرتجلة، أن تجمع بين التهنئة بهذا الولد الصغير وبين مدح آبائه وأجداده ودعت الله أن يحقق لوالده ما يريد له. وأن يزيد في معاليه وقد دلت على ذلك طلعته البهية وطالعة السعيد وقد جعلت الجياد تتشوق له لأن من عادة الملوك والأمراء تربية ابنائهم على الفروسية، وهي تتأمل فيه أن يكون بدراً في السماء، وان تكون الكواكب جنوداً له. وفي اسلوبها الاستفهامي الانكاري دلالة أخرى على أنه شبل لأن من رباه ضراغمة أسود ثم تمدح الأبناء والآباء من آل عامر لأنهم خير الآل.

وفي البيت الأخير مقابلة رائعة بين الوليد الحكيم حينما يسدي برأيه كأنه شيخ كبير، وشيخهم في قتاله أثناء الحرب كأنه وليد شاب يافع.

٦ـ الأبناء بجريرة الآباء:

وتفنن الشاعر أبو المطرف بن عميرة باستخدام لفظة الأبناء،وربطهما بفكرة المقارنة بين اخراج الأندلسيين من مدنهم واخراج آدم عليه السلام من الجنة فهو يرى أن هذا الاخراج لم يكن سوى عقاب من الله لما ارتكب الآباء من معاصي وذنوب في حقه فيقول(١٤):

أمن بعد رزء في بلنسبة ثوى ... باحنائنا كالنار مضمرة الوقد؟

يرجى أناس جنة من مصائبٍ ... تطاعن فيهم بالمثقفة الملد

ألاليت شعري هل من مطالع معاد الى ما كان فيها من السعد؟

وهل أذنب الأبناء ذنب أبيهم فصاروا إلى الاخراج من جنة الخلد

تفيض هذه الابيات بالعاطفة الإنسانية، وتزخر بحزن الشاعر وألمه على ضياع مدينته (بلنسية) وكانت جميلة ورافة الظلال جنة الله في أرضه، فاستولى عليها الاعداء وشردوا أهلها، واستطاع الشاعر أن يعكس لنا هول المأساة التي حلت بأهله، ومدينته واصفاً توتره واضطرابه مجسداً ما يعتصر قلبه من مشاعر تفيض أسىً وحسرة وتفجع مستخدماً اسلوب الاستفهام في موقف الدهشة والاستنكار والاستغراب في المواقف الأليمة الأخرى.

وفي البيت الأخير اشارة الى قصة سيدنا آدم عليه السلام فقد ربط بين اخراجه من الجنة وبين اخراج أهل مدينته منها، فكان يتساءل هل أبناء مدينته اذنبوا كذنب أبيهم آدم فاخرجوا من جنتهم كما خرج ابوهم من جنة الخلد. تساؤل لطيف وتوظيف جميل من الشاعر.

٧ـ حال الأطفال أثناء الحروب:

وللمعتمد ابن عباد قصيدة شعرية تعد من غرر الشعر العالمي لأنها فياضة بالشجن الصادق العميق، وهي من القصائد التي قالها في منفاه في (أغمات) وصور فيها مرارات السجن وآلام النفي، وآهات أطفاله وبناته فيقول مخاطباً قيده[١٥]:

قيدي أما تعلمني مسلما أبيت أن تشفق أو ترحما

دمي شراب لك واللحم قد أكلته، لا تهشم إلا عظما

يبصرني فيك أبو هاشم فينثني القلب وقد هشما

ارحـــم طفـــيلاً طائشـــاً لبـــه جرعتـــهن السُـــم والعلقمـــا

منـــهن مـــن يفهـــم شـــيئاً فقـــد خفنـــا عليـــه للبكـــاء العمـــى

والغـــير لا يفهـــم شـــيئاً فمـــا يفـــتح الا للرضـــاع فمـــا

ويصف حال بناته عندما ذهبن لزيارته وهو مودع في السجن في احد الأعياد فيقول[١٦]:

في ما مضى كنت بالأعياد مسرورا فجاءك العيد في أغمات مأسورا

ترى بناتك في الاطمار جائعة يغزلن للناس ما يملكن قمطيرا

برزن نحوك للتسليم خاشعة ابصارهن حسرات مكاسيرا

يطأن في الطين والأقدام حافية كأنها لم تطأ مسكاً وكافورا

هذه رائعة من روائع الشعر الأندلسي تحكي قصة ملك مملكة اشبيلية الذي قاده يوسف بن تاشفين أسيرا هو واسرته الى مدينة (اغمات) المغربية بعد العز والجاه والقصور العامرة، كما تروي لنا هذه الابيات حال أطفاله وبناته فهو يطلب الرحمة لطفله الصغير وأخياته الاخريات اللواتي تجرعن السم والعلقم.

أما أبو البقاء الرندي (ت٦٨٤هـ) فقد أهتم بموضوع الطفل بطريقة أخرى فقد وصف حالهم من جراء ما أصاب الأندلس من ويلات الحروب فراح يرثيها بنونيته المشهورة التي بدأها بهذه الحكمة[١٧]:

لكـــل شـــيء إذا مـــا تم نقصـــان فـلا يغـر - بطيـب العـيش - إنسـان

ثم يصف ما حلَّ بأطفال الأندلس فيقول:

يـــا رب أم وطفـــل حيـــل بينهمـــا كمـــا تفـــرق أرواح وأبـــدان

وطفلة مثل حسن الشمس إذ طلعت كأنمـــا هـــي يـــاقوت ومرجـــأن

يقودهـا العلـج للمكـروه مكرهـة والعـين باكيـة والقلـب حـيران

لمثـل هـذا يـذوب القلـب مـن كمـد إن كـان في القلـب إسـلام وإيمـان

لقد اكتسبت هذه النونية شهرة واسعة لسهولة ألفاظها ورقة معانيها وعذوبة موسيقاها. لذلك زاد عليها كل من أعجب بها البيت أو البيتين فأصبح عدد أبياتها يربو على المائة في الوقت الذي كان عدد الأبيات التي قالها الشاعر أبو البقاء الرندي ٤٣ بيتاً. وكذلك لما تضمنته من مشاعر إنسانية وصف بها حال الأم التي حيل بينها وبين طفلها وكأنه سلخ الروح من الجسد لشدة تعلق الأم بوليدها. ثم يرسم صورة طفلة جميلة تشبه حسن الشمس في طلعتها،وكأنها ياقوت ومرجان،ولكن العدو يقودها للمكاره مجبرة وعينها تذرف الدموع وقلبها حيران. لهذه الصور المأساوية يذوب القلب من شدة حزنه عليها لاسيما القلوب المسلمة المؤمنة.

٨ـ الشاعر الصغير:

أبو عامر أحمد بن عبد الملك بن شهيد الاشجعي الأندلسي القرطبي المولود عام (٣٨٢هـ) في كنف النعيم الأميري، المترعرع في ظل الجنان القرطبية، سليل الحسب والنسب من نسل أسرة عرفت بالمجد وتدرجت في سلم الوزارة فجده كان وزيراً عند العامريين. كان طفلاً صغيراً عالي الهمة، عظيم التفاخر بذاته، وقد جلب له فهمه وبراعته الأدبية تفاخراً آخر، فما أن انكب على العلم والأدب، ونهل من مناهل الشعر والنثر، حتى ثارت في نفسه ملكة التذوق والنقد وساعده في ذلك سرعة البديهة، ونبوغ الموهبة، وصفاء الذهن وتوقد القريحة، فأبدع في النظم وأجاد في التأليف والتجبر والنقد ومن تصانيفه: (كشف الدك وإيضاح الشك، وحانوت العطار، ورسالته المشهورة التوابع والزوابع).

وقد جعل ابن شهيد لصدر رسالته - التوابع والزوابع - مدخلاً مناسباً يحلل في رحلته إلى عالم الجن فقد أورد على لسان أبي بكر بن حزم إعجابه ببراعته الشعرية على صغر سنه حيث عزاها إلى تابعه.. لان تلك الشاعرية لا تتأتى لأي إنسان. وكانت وفاته (٤٢٦هـ).

ومن نظمه وهو صغير السن قوله[١٨]:

ما اطربت فوق الغصون حمامة ... إلا رأيت دموع عيني تسكب

وإذا الرياح تناوحت الفيتني ... بين الصبابة والأسى تقلب

كم حاولت نفسي السلو فطالبت ... أسبابه جهداً فعز المطلب

المبحث الثاني

أدب الأطفال في النثر الأندلسي

إن أدب الأطفال في كتابات أدباء وفقهاء الأندلس تجلى بصور عدة منها:

١ـ في التربية والتعليم:

اهتم الأندلسيون بالطفولة اهتماماً خاصاً وأولوها عناية متميزة، وذلك من خلال دعواتهم للحفاظ على حقوق الأطفال ورعاية مصالحهم، لاسيما في الجانب التربوي والتعليمي لديهم، فجاءوا بآراء جديدة في تربية الأطفال وتعليمهم، ومنهم الكاتب أبو مروان عبد الملك بن حبيب السلمي (ت٢٣٨هـ) فقد كتب رسالة إلى معلم ولده يقول فيها: (فليكن أول ما تؤدب نفسك، فان عيني متعلقة بهم، وأعينهم متعلقة بل، فالحسن لهم ما استحسنت، والقبيح عندهم ما استقبحت، علمهم كتاب الله ولا تكرههم عليه فيملوه)[١٩].

لقد وجه الكاتب الأندلسي معلم ولده بان يهتم بتعليم وتأديب نفسه أولاً،

ثم بين له بأن عيون الآباء متعلقة بأبنائهم، ولكن عيون الأبناء لا تكون متعلقة إلا بمعلمهم، وأنهم يستحسنون الأشياء التي يستحسنها، ويستقبحون ما يستقبحه، ثم أوصاه بأن يعلمهم كتاب الله تعالى دون إكراه كي لا يملوه.

أما الأديب أبو علي إسماعيل بن القاسم بن عبدون المعروف بـ (القالي) (ت٣٥٦هـ)في كتابه الأمالي فقد أشار إلى الأساليب التربوية الصحيحة الواجب إتباعها في تربية وتعليم الأطفال.

وكان الأندلسيون يحرصون أولاً على تعليم أولادهم القرآن الكريم،ثم يضمون إليه تعليم اللغة العربية، ورواية الشعر، وتعليم الخط، وقد انصرف بعض العلماء الى دراسة المناهج التربوية بخصوص عملية التعلم، كالعلامة أحمد بن عفيف بن عبد الله الأموي (٤٢٠هـ) الذي ألف كتاب (آداب المعلمين). وقد كان الأندلسيون يدفعون أجرة في سبيل تعلم العلوم[٢٠].

أما ابن عبد ربه الأندلسي (ت٣٢٨هـ) فقد ألف كتابا في (تأديب الناشئين بأدب الدنيا والدين)[٢١].

وعرض ابن حزم فقيه الأندلس (ت٤٥٦هـ) للتعليم في مرحلة الطفولة في رسالته (مراتب العلوم)، وفيها حدد سن الخامسة على أنها الوقت الملائم للتعلم، وعندما يجب تسليم الصبي إلى معلمه ليعلمه الخط وتأليف الكلمات من الحروف، وعلى المعلم في هذه الفترة أن يعلم الطفل كيف يكون الحرف قائماً وواضحاً في كتابته، وأن يكون الطفل قد تعلم هجاء الكلمات ونطقها النطق الصحيح، ومن الطريف أن يحذر ابن حزم المعلم من المبالغة في تعليم الطفل تحسين الخط لأنه مقدمة لزرع النفاق في قلب الصبي وتوجيه له بخدمة السلطان وتضييع عمره في الظلم والكذب.

ويرى ابن حزم أن الصبي إذا أجاد قراءة كل كتاب بطريقة قومه فقد وصل

إلى الحد الأقصى في مرحلة تعلم القراءة والكتابة.أما الخطوة الثانية في نظره فإن المرأة هي التي تعلم الأطفال،تعلمهم القرآن والحديث والشعر والخط، ومن الطبيعي أن يبدي الطفل اهتمامه بالمرأة في سن مبكرة فإذا أصبح شاباً رأى اهتمام الكبار بالشعر والغزل والمغامرات[٢٢].

وأدلى ابن خلدون (ت٨٠٨هـ) بدلوه في مجال التربية والتعليم عند أهل الأندلس فقال: ((لما كان القرآن أصل التعليم وأسسه، ومنبع الدين والعلوم، جعلوه أصيلاً في التعليم فلا يقتصرون لذلك عليه فقط، بل يخلطون في تعليمهم للولدان ورواية الشعر في الغالب والترسل وأخذهم بقوانين العربية وحفظها وتجويد الخط والكتاب وذلك إلى أن يبلغ الناشيء عمر البلوغ))[٢٣].

أما آراء ابن خلدون في المعلم: فينبغي أن يكون ملماً بمجموعة من الصفات والمميزات والمهارات التي تمكنه من اتقان عملية التعلم باعتبارها من الصنائع المتميزة في المجتمع وفي حياة الإنسان، كما أكد على قدرته على تهذيب الأطفال والمتعلمين من خلال المعاملة الحسنة (وذلك إن إرهاف الحد بالتعليم مضر بالمتعلم سيما في أصاغر الولد،لأنه في سوء الملكة.ومن كان مرباه بالعسف والقهر من المتعلمين أو المماليك أو الخدم سطا به القهر، وضيق عن النفس في انبساطها، وذهب بنشاطها ودعاه إلى الكسل وحمل على الكذب والخبث)[٢٤].

ويريد ابن خلدون من ذلك أن الشدة على المتعلمين مضرة بهم. فالعقاب يولد الاحباط لدى الطلاب، فاستخدام الشدة والقهر مع المتعلمين يزيد من احباطهم، والضيق والضجر يسبب لهم الكسل ويحملهم على الكذب وعمل الخبث.

ووجه ابن خلدون الآباء الرفق بابنائهم، ويجب اتباع طريقة النصح والارشاد في معاملتهم، أما في كيفية استغلال وقت الأطفال وتنظيمه فقال:

(ولا تمر بك ساعة الا وأنت مغتنم فائدة تفيده إياها من غير أن تحزنه فتميت ذهنه ولا تمعن في مسامحته فيستحلي الفراغ ويألفه، وقوّمه ما استطعت بالقرب والملاينة، فإن أباها - اي رفضها - عليك بالشدة والغلظة) لكنه لا يقصد ضربه. واستحسن ابن خلدون ما ذهب اليه القاضي أبو بكر بن العربي المعافري (ت٥٤٣هـ) من وجوب تقديم اللغة العربية،والشعر والحساب على تعليم القرآن والعلوم الدينية الأخرى، وقد أقر ابن خلدون بهذا الرأي من الناحية التربوية والنظرية، لكنه أثار في الوقت ذاته الى أن العوائد لا تساعد عليه[٢٥].

٢ـ الأحكام الفقهية:

أما فقهاء الأندلس فقد تعدى اهتمامهم بالطفولة في الدنيا وأخذوا يفتون بحكم الأطفال في الآخرة:

فقال ابن حزم الأندلسي (ت٤٥٦هـ): (اختلف الناس في حكم من مات من أطفال المسلمين والمشركين ذكورهم وإناثهم،فقالت الازارقة من الخوارج: أما أطفال المشركين ففي النار. وذهبت طائفة الى أنهم يوقد لهم يوم القيامة نار ويؤمرون باقتحامها، فمن دخلها منهم دخل الجنة، ومن لم يدخلها منهم أدخل النار، وذهب آخرون الى الوقوف فيها، وذهب جمهور الناس الى أنهم في الجنة، وبه نقول))[٢٦].

ومعنى ذلك أن أبناء المشركين ممن ماتوا صغاراً في الجنة، وانتصر لهذا الرأي بقوة حملته لانكار الآراء الأخرى التي خالفت ذلك.

وكلف لسان الدين بن الخطيب (ت٧٧٦هـ) بكتابة مؤلف عن تنصيب طفل سلطاناً،ليثبت فيه ان لهذا الحدث نظائر عديدة في التاريخ الإسلامي، وأنه تصرف سليم لا يتنافى وأحكام الشرع في شيء.

ويقع الكتاب في ثلاثة أقسام كبرى تحدث المؤلف في القسم الأول المصدّر بمقدمة نفيسة عن سلاطين مسلمين بويعوا صغاراً في تاريخ الدولة الإسلامية بالمشرق ومصر والشام.

وفي القسم الثاني تحدث عن أطفال تولوا السلطة في فترات من عمر دولة الإسلام ببلاد الأندلس منذ انطلاق حكم بني أمية إلى قيام دولة بني الاحمر بغرناطة، ولاسيما عهد (الغني بالله)، وتحدث في آخر الأقسام عن السلاطين المسلمين الذين حكموا قبل الاحتلام في تاريخ افريقية والمغرب الإسلاميين، بدءاً من أيام الاغالبة إلى حدود بداية عصر الموحدين، وظل القسم الأول من الكتاب إلى عهد قريب مخطوطاً. وأن القسمين الآخرين قد نشرا معاً منذ عقود، بحيث حقق القسم الثاني المستشرق الفرنسي (ليفي بروفنسال) ونشره بعنوان (تاريخ اسبانيا الإسلامية) وحقق الثالث الأستاذان أحمد مختار العبادي ومحمد إبراهيم الكتاني، ونشراه بعنوان (تاريخ المغرب العربي)[٢٧].

٣ـ أول عمل أدبي وتعليمي للأطفال:

لعل أبا الحجاج البلوي الأندلسي يوسف بن محمد (ت ٦٠٤هـ) من أعلام القرن السادس الهجري، وهو عالم ومجاهد وأديب، أول من فكر في تخصيص عمل أدبي وتعليمي للأطفال، فقد رزقه الله على كبر ولداً، فهو يقول في مقدمة كتابه (ألف باء): (وجعلت ما أولف فيه وأبني لعبد الرحم ابني) ثم أنشد:

هـــذا كتـــاب ألـــف بـــا ... صـــنعته يـــا البـــا

الا مـــن اجـــل تجلـــي المرجـــى ... إذا شـــــدا ان يلبـــــا

إلا أن محاولته جاءت على مستوى عال لا يناسب الصغار ولكن البادرة أو الفكرة في ذاتها كانت رائدة وطريفة.

وقد سبق أبا الحجاج البلوي الأندلسي:الأديب أبو عبد الله محمد بن محمد ابن ظفر الصقلي (ت٥٦٧هـ) الذي ولد في صقلية ونشأ بمكة ووفد الى المغرب والأندلس، وألف كتابه عن الأطفال (أنباء نجباء الأبناء)[٢٩]. وهذا الكتاب دليل واضح على أن لأدب الصغار مكاناً واضحاً بين أدب الكبار على الرغم من توليهم مقاليد الأدب، فقد وصل الأمر بالقدماء الى حد تسجيل مآثر الصغار، وايراد مشهورهم، وتوثيق أخبارهم والتندر بحكاياتهم، وهذا ما يؤكده ابن ظفر الصقلي عندما انتخب كتابه الآنف الذكر.

٤ـ في طب الأطفال:

لقد شمل اهتمام الأندلسيين حتى الطفل في رحم أمه فقد كتب عريب بن سعد القرطبي في موضوع (خلق الجنين وتدبير الحبالى والمولودين)[٣٠].

المبحث الثالث

أدب الأطفال المعاصر واستلهام التراث الأندلسي

لابد ان ينظر كتاب وشعراء أدب الأطفال الى التراث العربي الإسلامي ولو بالتفاتة بسيطة وسريعة، ولا بد أن يكون هناك تفاعلاً مع القديم والحديث دون المساس بالموروث القديم أو الانتقاص منه، والعمل على توظيفه توظيفاً نافعاً ومميزاً ليساير الواقع الحالي مع مراعاة العناصر الآتية:

١ـ انتقاء اللغة العربية:

ونقصد بهذا العنصر أن تكون اللغة التي يلجأ الكاتب أو الشاعر للكتابة بها، لغة عربية سليمة من أية لكنة، خالية من المصطلحات الصعبة، لأنها ضرورة من ضرورات الفهم الملحة عند الأطفال، على أن تتناسب مع الفئة العمرية الموجه إليها هذا النوع من الأدب دون مبالغة أو غموض حتى لا ننفر أطفالنا في لغتهم وتراثهم القديم.

٢ـ ترسيخ القيم الدينية:

إن أهم شيء في استلهام التراث في أدب الأطفال هو التركيز على حب الله وطاعته والالتزام لسنة رسوله الكريم محمد صلى الله عليه واله. ومحبة الدين الإسلامي والحفاظ على مبادئه وترسيخها في نفوس الأطفال.

٣ـ غرس حب الوخن:

- سيراً على مبد أ (حب الوطن من الإيمان) لذا وجب غرس حب الوطن وروح المواطنة لدى الأطفال منذ الصغر، هذه الروح المبنية على احترام الآخر والتآلف والتودد والتعايش السلمي والاخلاص بالعمل.

٤ـ الاهتمام بالتاريخ والحضارة العربية الإسلامية:

وذلك بان تظهر كتاباتهم الوجه المشرق للحضارة العربية الإسلامية دون المغالاة او الاغراق فيها. فهي تستحق الاهتمام لما لها من اشعاع روحي وفكري على العالم بأسره. لذا يجب أن يستلهم التراث والحضارة العربية الإسلامية في صنوف أدب الأطفال بشتى أنواعه:

١- استلهام التراث الأندلسي في شعر الأطفال:

لاشك ان استيعاب الشعراء العرب المحدثين للتراث باشكاله المتنوعه وتوظيفه في النص الشعري قد أصبح ظاهرة شائعة وسمة بارزة من سمات الشعر العربي الحديث، فما من شاعر عربي معاصر إلا ولجأ الى توظيف معطيات التراث في أعماله. فاتكاء الشاعر على موروثه وارتباطه به يكسب عمله اصالة وتفرداً. وفي اطار هذا التعامل الايجابي مع التراث تأتي تجربة الشاعر فوزي عيسى في توظيف الموروث العربي الإسلامي في اشعاره ودواوينه الاربعة،لاسيما توظيفه لشعر شعراء الأندلس مثل: عبادة بن ماء السماء، وولادة بنت المستكفي والاعمى التطيلي، ولسان الدين بن الخطيب.

كما وظف الشاعر بعض المقولات النثرية في شعره، لما تنطوي عليه من الدلالة التي تعادل واقعه المعاصر ولما تكشف عنه من مواقف نحن بحاجة الى استحضارها من أجل شحذ الهمم، وأخذ الحيطة والحذر والعبرة من التاريخ، ومن هذه المقولات مقولة طارق بن زياد في خطبته المشهورة عندما دخل الأندلس حيث قال: ((أيها الناس، أين المفر؟ البحر وراءكم، والعدو أمامكم، وليس لكم والله الا الصدق والصبر..)) والشاعر فوزي عيسى ذكر منها بعض الفقرات في قصيدته (زفرة العربي الأخيرة) فيقول[٣٢]:

هذي خيول طارق تعاود الصهيل

وصوته يزلزل البطاح والسهول

البحر من ورائكم

واسهم العدو في صدوركم

وليس ثم غير النصر من بديل

هذه العبارات والكلمات تشابه في شكلها ووظيفتها عبارات طارق بن زياد مع ادخال بعض التغيرات في مفرداتها.لكنها لا تؤثر في الدلالة الوظيفية. وجعلها انشودة للصغار.

٢- استلهام الموروث الأندلسي في قصص الأطفال:

ومما لاشك فيه أن التراث العربي ليس حكراً على شعب،أو أمة، بل هو تراث عالمي مشترك ينهل منه الجميع فرسالة (حي بن يقظان) للفيلسوف الأندلسي ابن طفيل هي التي أوحت للكاتب (دانييل ديفو) بتأليف كتابه (روبنسون كروزو) ومغامراته الشهيرة والتي لخص قصصها للفتيات الصغار الأديب العربي كامل الكيلاني في سلسلة (أشهر القصص) كما ترجمها فيما

بعد الكاتب مختار السويفي في سلسلة (روائع الأدب العالمي للناشئين) التي يصدرها مهرجان القراءة للجميع بمصر[٣٣].

ولو تمت العودة للتاريخ في محاولة سبر الابداعات في أدب الأطفال لتبين أن اسطورة (حي بن يقظان) قريبة من الأدب الذي عرف منذ أواخر القرن التاسع عشر باسم أدب الخيال العلمي. لان هذه القصة الاسطورية تحتوي مقومات الخيال العلمي بصورة واضحة،وتتحدث عن التكوين الإنساني والخلق والمؤثرات الطبيعية، وترسم شكلاً واضحاً لحياة نشأت مع الطبيعة من دون مؤثرات بشرية بصورة غنية للخيال العلمي.

ومن قصص الأطفال المعاصرة التي صاغت من التراث الأندلسي أحداثاً لتكون سهلة الفهم على الأطفال هي:

(الرحلة الى الأندلس) و(زباب معلم الناس والمروءة)و(عباس بن فرناس: حكيم الأندلس) للكاتبة سحر روحي الفيصل، و(فتح الأندلس في أدب الأطفال) لمحمد بسام ملص[٣٤].

ولعبد الهادي السعدون المغترب العراقي في اسبانيا رواية للأطفال والفتيات بعنوان (كنوز غرناطة) والتي حازت على جائزة الامارات بالمركز الأول لأدب الأطفال عام ٢٠٠٠م، حيث استلهم التراث الأندلسي فيها ووظفه توظيفاً جميلاً مستساغا لدى الأطفال[٣٥].

فهو يدرس في عدد من الجامعات الاسبانية الأدب العربي ويلقي المحاضرات في المراكز الثقافيه عن استلهام التراث الأندلسي في مختلف الفنون والابداعات العربية والغربية،ويعكف في تأسيس مركز ترجمة كبير لتقريب الحضارتين العربية والاسبانية.

وكتب الدكتور محمد محمود القاضي (سلسلة قائد وموقعه) قصة القائد

العربي المسلم فاتح الأندلس (موسى بن نصير) استوحاها من التراث العربي الأندلسي[٣٦].

ونشرت مجلة المرأة في اليمن عن المسرح المدرسي اليمني ما ذكره الأستاذ سعيد العولقي في كتابه (سبعون عاماً من المسرح اليمني)، وكان للمدرسين العرب السوريين والمصريين والفلسطينيين والعراقيين دور كبير في انشاء هذا المسرح. ومن هذه المسرحيات التي ذكرها العولقي والتي كان يقدمها طلبة المدارس في المناسبات أو في نهاية العام الدراسي: (طارق بن زياد، موسى بن نصير، وصقر قريش وغيرها) كانوا يعمدون إلى هذه الاعمال يستنبطون منها اعمالاً مسرحية تبرز العدالة ونقيضها[٣٧].

وندون في أدناه قصة موسى بن نصير التي حملت عنوان (الشاب الأعرج): يحكى أن رجلاً، كان عنده خيول، يربيها ويدربها ثم يبيعها، وكان له ولد شاب يساعده وذات يوم، بينما كان هذا الشاب يركب حصاناً يدربه، اذ وقع من فوق ظهره فكسرت ساقه، فأصبح أعرجا يمشي على عكازتين، اندلعت نار الحرب في تلك المنطقة، فأمرت الحكومة أن يجند كل من هو قادر على حمل السلاح. فذهب كل رجال القرية وشبابها وبقي الشاب الأعرج وبعد تدريب هذا الجيش بدأت المعركة، فأحاط الاعداء بهذا الجيش.وقتلوا بعضهم، وأسروا الباقي. ولما سمع أهل القرية على منظر افراحهم، لقد رأوا الشاب الأعرج يركب على حصان وهو يتقدم الجيش المنتصر وهم يسوقون أمامهم الاعداء مكبلين)[٣٨].

ومن الدروس والعبر التي تخرج بها من هذه القصة البسيطة الآتي:

- إن اسلوبها كان منسجماً مع مستويات الأطفال.

- إن الموقف الذي اتخذه الشاب الأعرج وعمل بكل اخلاص وحماسة

على تنفيذه لانقاذ أهله ووطنه، وقد حقق ما أراد.

- زرع الامل في نفوس الأطفال المعاقين، فالاعاقة قد تكون دافعاً لهم لتحقيق ما يريدون، فكثيراً ما تكون العاهة حافزاً لبناء الشخصية العظيمة ومركب سمو يسد النقص عما فقد من بناء الجسم، وقد تكون قوة الشخصية مستنده اساساً الى العاهة، فكم من طفل عيب عليه في صغره في عاهة ما واذا به يتفوق على الاسوياء بقوة شخصيته، وكم من وسيم يملأ العين منظره تجده خامل الهمة بعيدا عن ما يفكر به الآخرون، ولأجل ذلك ضربت العرب هذا المثل: (ترى الفتيان كالنخل وما يدرك ما ا لدخل)[٣٩].

ويشرح الميداني هذا المثل بقوله (الدخل: العيب الباطن، يضرب لذي المنظر لا خير عنده). فجمال الشكل ليس بالضرورة يكون مؤشراً لعلو الهمة.

٣- استلهام الزجل في اغنيات الأطفال:

كتب ابو الحسن الششتري قصيدة زجلية شعبية قبل أ كثر من (٧٣٥) عاما، بعد أن تصوف ولاجل أن يطهر نفسه من الذنوب لبس غرارة على عنقه وثوبا باليا ومشى في الاسواق متعكزا على عكاز وهو ينشد هذه القصيدة المشهورة والتي يرددها الناس،لاسيما،الأطفال دون توقع لعمرها.

ومن أول الثمانينات وقصيدة: (شويخ من أرض مكناس) بقيت عالقة في الاذهان، ومن الرائع أن نتذكر الاشياء المميزة في تراثنا العربي الأندلسي، لأنها تمنحنا القوة والابداع في تقديم ما هو جديد مستلهم منها،وتذوقه بوعي أكبر وأيضا تمنحنا تقديرا واحتراما لأولئك الذين خدموا التراث الإنساني على مر العصور.

والقصيدة الزجلية لأبي الحسن الششتري هي:

((شويخ من ارض مكناس وسط الاسواق يغني

اش علي انا من الناس واش على الناس مني

اش عليا يا صاحب من جميع الخلايق افعل الخير تنجو واتبع اهل الحقايق

لا تقول يا ابني كلمة إلا أن كنت صادق خذ كلامي في قرطاس واكتبه حرز عني

اش علي انا من الناس واش على الناس مني ثم قول مبين ولا يحتاج عبارة

اش على حد من حد افهموا ذي الإشارة وانظروا كبر سني والعصا والغرارة

هكذا عشت في فاس وكذاك آنا هوني اش علي انا من الناس واش على الناس مني

وما احسن كلامه إذا يخطر في الاسواق وترى اهل الحوانيت يلفتوا لو بالاعناق

بغرارة في عنقه وعكيكز ورقراق شويخ مبني على ساس كما ان شاء الله مبني

اش علي انا من الناس واش على الناس مني لو ترى ذا الشويخ ما أرقوا بمعنى

التفت لي وقلي أش نراك تتبعنا أنا ننصب لي زنبيل يرحموا من رحمنا

وأقاموا بين اجناس ويقول دعني دعني اش علي انا من الناس واش على الناس مني

من عمل يا بني طيب ما يصيب إلا طيب لعيوبوا سينظر وفعالوا يعيب

والمقارب بحالي يبقى برا مسيب من معوا طيبة انفاس يدري عذر المغني

اش علي انا من الناس واش على الناس مني وكذاك إشتغالوا بالصلاة على محمد

والرضا عن وزيروا أبي بكر الممجد وعمر قائل الحق وشهيد كل مشهد

وعلي مفتي الأرجاس إذا يضرب ما يثنى اش علي انا من الناس واش على الناس مني

يا الهي رجوتك جد علينا بتوبة بالنبي قد سألتك والكرام الاحبة

الرجيم قد شغلني وانا معه في نشبة قد ملى قلبي وسواس من ما هو يبغي مني

اش علي انا من الناس واش على الناس مني تم وصف الشويخ في معاني نظامي

وإني خواص ونقري لأهل فني سلامي وإذا جوزوني نقل أول كلامي

شويخ من أرض مكناس وسط الأسواق يغني اش علي انا من الناس واش على الناس مني)).

ولعل السبب في اشتهارها واعجاب الناس بها منذ القدم ولحد الان - فقد غناها بعض المغنين العرب - لأن اعتمدت كلمات رائعة ولأنها تمس الشعور الإنساني، وحكمتها بسيطة وتلقائية،وفيها نوع من التبتل والتضرع ترتاح له الأنفس، كما أنها تحرك الخيال نحو شيخ كبير فقير أبيض اللحية يسير في الاسواق ذي حكمة أكثر من أولئك المنشغلين بأمور الدنيا. وهي تشابه الى حد كبير الحكايات القديمة التي يفضلها الناس ويستمتعون بمثالياتها وقيمها العليا.

خاتمة البحث ونتائجه:

بعد هذه المسيرة البحثية التي تجولنا من خلالها في أروقة المكتبات ورفوفها، وأندية الأدب وضروبها، وصفحات الدواوين وأغراضها، تأكد لنا أن الآباء والأجداد لم يغفلوا أبناءهم وأولوهم العناية الكافية التي يستحقونها، فقد كان الأندلسيون مبعث فخرٍ في هذا الجانب، وكانت لهم اسهامات واسعة ومتنوعة توزعت بين الشعر بأغلب أغراضه، وفن الزجل، والنثر ببعض صنوفه، والقصص والروايات، فضلاً عن تراثهم النثري، حيث كان مدعاة لمصادر اشعاع اضفت على كتابات المحدثين نكهة أندلسية جميلة بجمال طبيعتها التي عهدناها. وتجلت النتائج التي توصلنا إليها خلال تلك المسيرة البحثية بما يلي:

١- إن هذه الدراسة رد على من ادعى بأن القدماء لم يدونوا أدباً للأطفال.

٢- كشفت لنا أن الأندلسيين أولوا أطفالهم عناية فائقة وكرسوا جهودهم وطاقاتهم لخدمتهم.

٣- كانت تلك العناية على طرق متعددة، أولها عن طريق الشعر، أما بغرض الرثاء فهناك قصائد تفوح أسىً وحرقة على فقدان الابناء. كرثاء ابن عبد ربه الأندلسي وأبي بكر بن قسوم الاشبيلي واسماعيل بن بدر القرطبي، وأبي الحسن علي الفهري القيرواني، ومحب الدين السبتي وغيرهم.

٤- لم يقتصر رثاء الشاعر الأندلسي على الابناء بل شمل البنات أيضا كرثاء ابن حمديس الصقلي لابنته وابن ساره الشنتريني.

٥- ومن أجمل ماقاله الشاعر الأندلسي في ذكر الأطفال لحظات التوديع

التي برع في وصفها ابن دراج القسطلي حينما ودع أسرته وأطفاله من خلال قصيده مدح.

٦- ومقارب للمعاني التي ذكرها ابن دراج يطالعنا أبو بكر بن زهر وهو يصف شوقه وحنينه الى أهله وطفله الصغير.

٧- بعد لحظات الحزن والفراق تأتي احدى شاعرات الأندلس بتهنئتها الممزوجة بالدعاء للمظفر بن المنصور بولده الذي كان بين يديه حينما دخلت عليه.

٨- ومن المواقف التي ذكر فيها الشاعر الأندلسي الأولاد موقف أخذ الابناء بجريرة الاباء حيث وظف قصة سيدنا آدم عليه السلام. وربطهما بما حل ببلاد الأندلس من الويلات وجعل سبب تلك الويلات كثرة ارتكاب أبناء الأندلس للمعاصي فحل عليهم غضب الله فأخرجهم منها كما أخرج إباهم من الجنة.

٩- أجاد أبو البقاء الرندي في تنويه حينما وصف حال الأطفال المأساوية جراء الحروب والفتن التي حدثت على أرض الأندلس.

فمرة يصف حال الطفل المفارق لأمه وكأنه روح سلخت عن الجسد ومرة أخرى يصف طفلة حسناء مشرقة كشروق الشمس يسوقها العدو مكرهةً ودموعها تنهمر وقلبها حيران.

١٠- وكانت للسان الدين بن الخطيب اسهامة في ذكر ابنه في احدى زجلياته.

١١- لم تقتصر اسهامات الأندلسيين في ذكر أطفالهم في اشعارهم. بل كان بعضهم هو نفسه شاعرا صغيرا كالشاعر نبي اسحق ابراهيم بن سهل الاشبيلي الذي نبغ في الشعر وهو ابن عشر سنوات.

ومن النتائج التي توصلنا اليها من المبحث الثاني الخاص بالتراث النثري ما يلي:

١٢- إن كتابات الأندلسيين توزعت بين التربية والتعليم، وبين الاحكام الشرعية والفقهية، وبين مصنفات خاصة بالأطفال، منها كتاب (اعلام الاعلام فيمن بويع بالخلافة قبل الاحتلام) للسان الدين بن الخطيب. وكتاب (ألف باء لأبي الحجاج البلوي الأندلسي)، فقد رزقه الله على كبر ولدا فألف هذا المصنف، وهو أول من فكر في تخصيص مثل هذا العمل للأطفال.

١٣- وكان للاطباء الأندلسيين نصيب في الاهتمام بالأطفال ورعايتهم منذ اللحظات الأولى لتكوين الجنين،فقد كتب الطبيب القرطبي موضوعا عن: (خلق الجنين وتدبير الحبالى والمولدين).

١٤- ومن نتائج المبحث الثالث ما يلي:

- لابد أن يكون تفاعلا بين القديم والحديث فهناك من كتب أدبا للأطفال في العصر الحديث، مستلهما التراث الأندلسي،في اشعارهم، وقصصهم، ورواياتهم، وحتى أغانيهم الشعبية، كقصة موسى بن نصير، وطارق بن زياد، وقصة فتح الأندلس، وصقر قريش، ورواية حي بن يقظان لابن الطفيل التي اصبحت من الروايات العالمية والمحببة للأطفال. وتلك القصيدة الزجلية التي نظمها أبو الحسن الششتري (ت٦٦٨) واصبحت اغنية شعبية يرددها الصغار والكبار ومطلعها: (شويخ من ارض مكناس). فمن الرائع ان نستلهم تراثنا دون المساس بأصالته.

هذا هو التراث الأندلسي المعين الذي لا ينضب للدراسات الأدبية والعلمية والتاريخية، قديماً وحديثاً.

هوامش البحث

١- تاريخ الأدب الأندلسي (عصر سيادة قرطبة)، احسان عباس ط١، دار الثقافة - بيروت - ١٩٦٠، ج١ /١٣٨ العقد الفريد: ٢٥٠-٢٥٣.وله أخرى في رثاء ابنه الطفل: المصدر: العقد٣/٢٥٨ وتاريخ الأدب الأندلسي: ج١/١٣٩.

٢- شعراء المغرب والأندلس، يوسف عطا الطريفي، ط١/ المطبعة الاهلية للنشر والتوزيع، عمان، الاردن، ٢٠٠٧: ص٢٤٣.

٣- المصدر السابق والصفحة ذاتها.

٤- الحلة السيراء ج١/٦٦ لابن الابار - موقع الوراق

٥- المصدر السابق ج١/٦٦.

٦- شعراء المغرب والأندلس: ٣٨٥.

٧- المصدر السابق: ٤٠٤.

٨- المصدر السابق: ٤٠٥.

٩- ديوان ابن حمديس الصقلي:٣٦٧ صححه وقدم له احسان عباس دار صادر - دار بيروت، ١٣٧٩هـ - ١٩٦٠م.

١٠- شعراء المغرب والأندلس: ١٤٢.

١١- ديوان ابن دراج القسطلي تحيق د. محمود مكي ص٢٩٧ - ٣٩٩.

١٢- شعراء المغرب والأندلس: ٢٣٨-٢٣٩.

١٣- المصدر السابق: ٣٥٥.

١٤- نفح الطيب من غصن الأندلس الرطيب، احمد بن المقري التلمساني، تحقيق احسان عباس - دار صادر - بيروت - لبنان ط١، ج١٠/٦.

١٥- الذخيرة في محاسن اهل الجزيرة، لابن بسام.والشعر الأندلسي بحث في تطوره وخصائصه - اميليوا جارثيا جوميت، لترجمة د. حسين مؤنس: ٧٩، دار الرشاد، العربية للطباعة والنشر القاهرة ١٣٧١ هـ - ١٩٥٢م.

١٦- شعراء المغرب والأندلس:٣١٥.

١٧- نفح الطيب: ٦/٢٣٢-٢٣٥.

١٨- ديوان ابن شهيد: ص٦، تحقيق محيي الدين ديب الطبعة الأولى، دار المكشوف، ١٩٦٣.

١٩- مجلة دعوة الحق - مجلة شهرية تعنى بالدراسات الإسلامية العدد ١٩٧ لسنة ١٩٥٧ وزارة الاوقاف والشؤون الإسلامية - الرباط - المغرب.

٢٠- الحياة العلمية في عصر الخلافة في الأندلس، سعد عبد الله صالح البشري موق الحوار المتمدن.

٢١- ينظر تاديب الناشئيين بأدب الدنيا والدين، احمد بن محمد بن عبد ربه الأندلسي، تحقيق محمد ابراهيم سليم، المكتبة الوقفية.
٢٢- ينظر رسائل ابن حزم، لابن حزم الأندلسي، ١٩٨٧. المؤسسة العربية للدراسات والنشر.
٢٣- مجلة دعوة الحق - مقالة التعليم بالمساجد - محمد بن احمد الامراني - العددان (٣٥٥-٣٥٦) ١٤٢١هـ - ٢٠٠٠م.
٢٤- لمحات تاريخية من الفكر التربوي في مقدمة ابن خلدون، مقالة بقلم د. سوادي عبد الله محمد.
٢٥- مقدمة بن خلدون: ٥٤٠، للعلامة عبد الرحمن بن خلدون ت ٨٠٨هـ.دار الطليعة للطباعة والنشر - بيروت.
٢٦- الفصل في الملل والاهواء والنحل، لابن حزم الأندلسي، تحقيق د. محمد ابراهيم نصر، ود. عبد الرحمن عميرة، دار الجيل، بيروت ١٤٠٥هـ.١٩٨٥م. ج١٢٧/٤.
٢٧- مقال: (ابن الخطيب واحاطته) د. فريد معضشو - مجلة (عود الند) المجلة الثقافية الشهرية - العدد٧٠ السنة السادسة - المغرب الناشر د. عدلي الهواري.
٢٨- مجلة دعوة الحق، العدد ١٣٦ مقالة (الحرف العربي في مفاهيمه).
٢٩- ينظر كتاب (انباء نجباء الابناء) لمحمد بن ابي محمد بن ظفر المكي الصقلي دار الافاق الجديدة - ١٤٠٠هـ - المكتبة الوقفية للكتب المصورة.
٣٠- ينظر مجلة - شبكة العلوم الفنية العربية العدد٧ - سبتمبر ٢٠٠٥.
٣١- المصدر السابق - ومقالة نجوم الطب في الاسلام، للشريف محمد الجودي منتديات مكاوي.
٣٢- ينظر مقالة (تجربة فوزي عيسى الشعرية بقلم عبد الرحيم حمدان حمدان) موقع ديوان العرب - ١١نيسان -٢٠١٣.
٣٣- ينظر مجلة الكويت (أدب الأطفال والتراث، احمد المكينسي) العدد٣١٧ في ٢٠١٠/٣/١٥. ومجلة اسامة الشهرية، وزارة الثقافة.
٣٤- ينظر قراءة في كتاب (أدب الطفل وثقافة وبحوثة)، د.محمد الربيع واحمد زلط، عرض الأستاذ الدكتور حسين علي محمد.منتديات موقع ازاهير الأدبية.
٣٥- رواية كنوز غرناطة (رواية للأطفال) عبد الهادي السعدون طبعة في الامارات ١٩٩٧.وتنظر جريدة الاتحاد مقالة بعنوان (عبد الهادي السعدون الشاعر المغترب في اسبانيا) ١٦ جولاي.
٣٦- موسى بن نصير فاتح المغرب والأندلس لدكتور محمد محمود القاضي ضمن سلسلة قائد وموقعة دار التوزيع والنشر الإسلامية ١٩٩٨.
٣٧- صحيفة المرأة تصدر عن دار المرأة للصحافة والنشر مقالة (أدب الأطفال اهتمام مغيب) لاحلام صالح عباس - اليمن.
٣٨- القصة والحكاية في أدب الأطفال - موقع الدكتور احمد الخاني.
٣٩- مجمع الامثال للميداني تحقيق محمد محي الدين عبد الحميد - ط٣ -ج١

٤٠- مقدمة ابن خلدون صفحة ٦٩٩.
٤١- كتاب قيم الأدب الإسلامي في ابداع البحراوي، الفصل الأول بقلم الدكتورة / اميمة منير جادو، تقديم الشاعر د. محمود خليفه غانم. الحائز على جائزتي وزارة الثقافة وجمعية احباء البحراوي موقع دنيا الراي - كتب عربية. www.ektab.com